

ضبط النفس في الملمات

لحضرة صاحب السعادة عبد القادر الجمل باشا

استشار الاقتصادى لبيك تسليف الزراعى المصرى

تتاب الأثم من وقت لآخر شدائد مدلهمة ، هى فى الواقع اختبار قاس لقويم أخلاقها وسلامة تفكيرها ، ومثانة أعصابها ، فإن هى صمدت إلى تلك الشدائد وعالجتها فى روية وهدوء ولم تجزع لها أكثر مما يجب ، فهى لا بد متغلبة عليها ناجية من شرها سواء أطلال أمد هذه الملمات أم تقصر . فما لاشك فيه أنه لا يمكن أن يكون هناك تفكير سليم مجد إذا كانت النفوس جامحة والأفكار مشتتة مبسلة ؛ وهذه بديهية لا ريب فيها ولا تحتاج إلى برهان أو دليل ؛ فإذا ما تعددت الكوارث وتلاحقت المواقف العصيبة واستفحل أمرها ، كان ذلك أدعى إلى ضرورة هدوء النفس وضبط جماحها وعدم الاستسلام إلى الهواجس ، وإلا نخرج الأمر من اليد واستحالت معالجته بما تستوجبه من هدوء وفضة وبعد نظر .

الملمات والشدائد تصهر أخلاق الأثم صهرا عنيفا حادا وتمنعها من الاستكانة إلى أيام الرضاء والطمأنينة ، فيجب على كل أمة أن تروض نفسها على مقابلة الملمات بهدوء وضبط نفس ، فهذه صفات يمكن بشيء من قوة الإرادة والعزم تعويد البلاد عليها رويدا رويدا حتى تألفها وتستريح إليها وفى ذلك الخير كل الخير لها .

وما يساعد على ضبط النفس عند الشدائد صدم الاستماع إلى الإشاعات المثيرة التى تبسط العزيمة وتدعو إلى اليأس والى يروجها العدو لهذا الغرض بالذات ليؤثر تأثيرا سيئا فى قوى الأمة المعنوية ويفكك من وحدتها — والتغلب على القوى المعنوية فى أى بلد كان أشد أثرا وأشنع نتيجة من التغلب على قواها المادية . فكما نبذت الأمة هذه الإشاعات والدعايات الخطرة جانبا ولم تعرها أى عناية كان ذلك أدعى لسلامتها وأحفظ لكيانها من الاضمحلال ، ركأت الأمة أقوى على مقابلة الشدائد والتغلب عليها بقوة العزيمة وصبر على المكاره حتى تجتد لها حلا يوافق مصالحها . كما يجب على كل أمة تريد أن تدرك عن نفسها خطر الملمات عند وقوعها ألا تستسلم إلى ما عليه عواطفها عليها ، بل يجب أن يكون العقل رائدا لها وبراس لكل ما يصدر عنها من قرار أو حكم ، فلا يفعلات النفسية تمكصو التفكير ولا يلتج عنها إلا الضرر البديع الذى قد يؤدي إلى التهلكة وبوقوعها فى أشد المواقف خطرا هيا وبلى ضلالتها .

تتناهنا الآن في مصر ملمات قديمة متنوعة وتجتاز بلادنا، شعبا وحكومة وأفرادا، أياما عصيبة قضت بها الظروف الحاضرة الهندسية، ونحن أحوج ما نكون إلى ضبط أنفسنا بقوة وحزم إذا أردنا أن نصل ببلادنا العزيزة إلى بر السلامة بين هذه الأمواج المتلاطمة، وإذا أردنا أن نتفادى أكثر ما يمكن تفاديه من شرورها المستطيرة. أما إذا استسأنا إلى الجزع واليأس وطاشت أحلامنا وبعدنا عن التفكير الهادئ السليم في مواجهة تلك الطوارئ المروعة استعصى علينا أن نجد لها الحل الموفق الذي يحفظ مصالح البلاد من العبث ويدبر المسوء عنها، فالاستسلام للجزع بقية كبرى في أخلاق الأمم، ويجب على كل من يتولى لشؤون العامة في البلاد أن يعمل على القضاء عليها قضاء مبرما أنى وجدت.

ومما يدعو إلى الاعتباط أن نرى أن بلادنا قد اتخذت بعض قرارات موفقة كل التوفيق في الظروف الحاضرة - قرارات صدرت عن روية وبعد نظر - هي أبعد ما تكون عن الارتجال، قرارات صدرت بعد ضبط النفس وعدم الاستسلام إلى الجزع مما كان له أحسن الأثر في البلاد من أديانها إلى أقصاها. وقد كانت الغالبية الكبرى لهذه القرارات قاصرة على المسائل السياسية، وينقصنا اتخاذ بعض قرارات أخرى اجتماعية واقتصادية لها وثيق الارتباط بانظروفي الحالية، وزوجوا ن تتخذ أنفس الروح الوطنية الطيبة التي اتخذت في القرارات السياسية، وعلى ألا يكون للعواطف فيها دخل مطلقا، بل يجب أخذها على ضوء المصلحة القومية بعد ترو عميق، ولا ننسك في أئد سنصل إلى ذلك بمشيئة المولى عز وجل وحسن تقدير رجالنا العاملين للظروف المحيطة بنا.

كما يجب علينا اتخاذ الحيطة من الآن، إذ ربما تقسو علينا الظروف قريبا، فلا زالت الحالة تدعو إلى الزيادة في اليقظة وضبط النفس والاستعداد لكل الطوارئ بكل ما أوتينا من مورد.



قد جهدت فيما سبق أن أبين ما لضبط النفس في الملمات من ضرورة عظمى لكل أمة تريد أن تحيا الحياة الوطنية الصاعدة وتريد أن تدافع عن كيانها واستقلالها بتدعيم به، غير أن ضبط النفس عند الشدائد ضروري أيضا لدى الأفراد في حياتهم الخاصة وفي أعمالهم اليومية وما يصادفهم فيها من متاعب تتجدد من وقت لآخر، ولعل ضبط النفس لدى الأفراد هو الأساس الذي لا غنى عنه لضبط النفس لدى الأمم، فما للأمم إلا مجموعة من الأفراد التي تكونها ومثى كانت أخلاق الفرد متينة قوية فلا ريب في أن أخلاق الأمة بجمعها تكون قوية متينة.

والواقع أن عاطفة الفرد متأهجة عند، صابته بكارثة إلى طريق الحزن والألم والقلق تبعاً لنوع وظروف كل مامة فيقل إنتاجه وتفكيره وقد يودي به.

والتاريخ قديمه وحديثه حافل بالعظائم وبأمثلة تدل على ضبط النفس عند الملمات لدى بعض الأمم وما كان لذلك من أثر حسن في تاريخ تلك الدول . ولا إخالني بحاجة إلى تعداد هذه الأمثلة لأن ذلك يستغرق وقتاً طويلاً لا أملكه . بل سأكتفى بسرود مثل واحد منها يعرفه الكثيرون .

ففي سنة ١٩١٧ وأوائل سنة ١٩١٨ إنان الحرب العالمية العظمى الماضية ساءت حال الحلفاء الحربية إلى درجة مخيفة وأشفق العالم عليهم أيما إشفاق حتى خيل للناس أن قضى الأمر وأن نهاية مقاومة الحلفاء قد قربت وأن فوز ألمانيا عليهم صار وشيكاً . وقد زاد الحالة خطورة انقسام في الرأي وقع بينهم وأصبحت الحالة المعنوية بين الأهالي على أسوأ ما تكون من جزع وهلع . ولكن ما ظننت تلك الدول إلى خطورة الموقف حتى عهدت بالحكم فيها إلى رجال عرفوا بشدة صراهم وصدق عزيمتهم وشجاعتهم لا يعرفون للجزع والياس معنى مع الحياة فث هؤلاء الرجال في روح بلادهم الشيء الكثير من إيمانهم بالنصر النهائي ووجدوا صفوف الأمة وجابوا الموقف بشجاعة وعزم لا يعرف الملل ولم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى كلت جهودهم بالنجاح واستقامت أمورهم السياسية والحربية وكتب لهم الفوز . ولو تهادوا فيما كانوا عليه من خوف وجزع لاستعصى عليهم الأمر وعرفوا الذل والذوان الذي يصحب الانكسار واحتلال العدو للبلاد ولذا قوا مرارة الاستعباد .

هذا مثل لأمة ضغطت نفسها عند وقوع الشدائد فكسبت لها السلامة والنصر . كما أبدت الأمة الإنكليزية أخيراً مثلاً رائعاً لضبط النفس عند الملمات وذلك عندما تخلت عنها فرنسا وبلجيكا واضطرت لسحب جنودها من دنكرك في أسوأ الظروف وأشدها فتحت الجنود عن جميع معداتها انيكانيكية والحربية في فرنسا وعادت إلى انكاثراً وقد أصبحت في خطر شديد من غزو العدو - لم يفت هذا المركز الحرج من ساعد لانكليز بل حزموا أمرهم وصبروا وأعادوا تسليح قواتهم ووظدوا أنفسهم على القتال وحدهم . وما كان يتسنى لهم ذلك ما لم يضبطوا أنفسهم بشدة وقسوة وما لم يبنذوا الجزع جانباً ويفكروا في الخلاص من مأزقهم في روية وهدوء .

بمثل هذا الخلق المتين وهذه الوطنية الفاتقة تسود الأمم وتحافظ على كيانها القومي من كل عث . وبمثل هذه الروح مائية والمناورة على العمل المنتج الصحيح تتغلب الأمم على كل شدة قد تصادفها في حياتها وتتجو من شرورها وتعود إلى سيرتها الأولى واثمة من قدرتها على مقاومة كل مائة قد تعترها في المستقبل . فهذا الدرس المفيد قد علمته بريطانيا العظمى عملياً نساء الأمم فحسى أن تقتدى به في كل أعمالها القومية لتصل إلى ما تمنناه لوطننا من رفعة الشأن .

